التربية الصوفية فى الإسلام ومدى الحاجة إليها
فى العصر الحديث

القيت بدعـــوة من الأزهر الشريف
بقاعة المحاضرات الأزهرية

٢٩ شعبان سنة ١٣٨٣
١٤ ينـاير سنة ١٩٦٤

بسم الله الرحمن الرحيم

التربية الصوفية فى الإسلام ومدى الحاجة إليها فى العصر الحديث

مقدمة :

الحمد لله الذى خلق الروح وجعلها من امره ، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد رسول الله الذى اشرقت روحه على المؤمنين بنور التوحيد ، وبثت فى بواطن صفوتهم محبة الله وايثاره تعالى على ما سواه . فجاهدوا فى الله حق جهاده حتى نالوا مقام الاحسان ، عطاء من الله ، وهو (ان تعبد الله كأنك تراه ، فان لم تكن تراه فانه يراك) ، وكانوا فى زمانه اصحابه (ولا شرف أعلا من صحبته صلى الله عليه وسلم) ، وجاء من بعدهم التابعون ، ومن بعد هؤلاء تابعو التابعين ، فأطلق على الخيار منهم (الزهاد والعباد) ، ثم قيل لهم فى القرن الثانى الهجرى (الصوفية) ، وعرف المتشبه بهم (بالمتصوف) .

فلم يكن الصوفية اذن دخلاء على المسلمين ، ولم يكن التصوف ابتداعا جديدا فى الاسلام ، وانما جدد الصوفية (على اساس من الكتاب والسنة) العمل بالدين للذين غفلوا عنه ، حين اتسعت الفتوحات الاسلامية ، وتنافس الناس الدنيا ، فشغلتهم عن أمور الاخرة حتى كادت تنسيهم المعاد الذى يردون فيه الى الله .

واقتضى تجديد العمل بالدين فى همة تشبه همة الصحابة ، ان يتكلم الصوفية باصطلاحات لا يفهمها الا اهلها ، خاصة وأنها تتصل بأذواق ومواجيد ، جاءتهم الهاما بالتجربه ، لا بالنطق والبرهان ، فمن دخل فيهم وجاهد جهادهم ، فهم مصطلحاتهم ، وكفته اشارتهم عن عبارتهم . وهذا شبه بما وقع من الفقهاء حين وضعوا بعد زمن الصحابة علم (الفقه) ، وخصوه فيما بينهم بمصطلحات لا يفهمها الا من تعلمها منهم ، كالفرض والنفل والواجب والمندوب ..الخ ، ولا نقول ان ظهور هذه المصطلحات تضمن خروجا عن الدين او أتى بجديد فيه .

لذلك لا تعجبوا ان تسمعوا من الصوفية استدلالا بكتاب الله أو سنة رسول الله ، أو بكلام أحد الصحابة ، لا .. بل انكم ستسمعون منى حكما بالغة فى مناسباتها ، من كلام الخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم ، لأنهم كانوا بعد رسول الله أئمة الدين ، علما وعملا ومذاقا ، فاخذ عنهم الخلف ما اخذوه هم من امام الائمة سيدنا ومولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد تلحظون بصفة خاصة اكثارى من الاستدلال بكلام مولانا أمير المؤمنين على بن أبى طالب ، ولا عجب فانه كان يقول : (سلونى قبل أن تفقدونى) ، كما كان يقول : (ان هاهنا لعلما جما ويشير الى صدره لو أجد له حملة) ، ورضى الله عن سيد الصوفية فى زمانه الإمام الجنيد حين قال فيه كرم الله وجهه : (لولا أنه اشتغل بالحروب لأفادنا فى علمنا هذا معانى كثيرة) ، ذاك امرؤ أعطى العلم اللدنى ، والعلم اللدنى هو العلم الذى خص به الخضر عليه السلام قال تعالى (وعلمناه من لدنا علماً) [١] .

وانى أسأل الله ان يجزى عنا سلفنا الصالح خيرا كثيرا ، وأن

---

[١] الآية ٦٥ من سورة الكهف .

يثيب عنى وعنكم مشايخى فى الله ، الذين دلونى على الله ، وأوردونى منهلهم ، منهل الصدق والصفاء ، واخص منهم أئمتى الأقربين ، سادتى : العارف بالله سيدى الشيخ محمد أبى خليل ، ساكن ضريحه الأنور بالزقازيق وهو شيخ طريقتنا وقطب عصره ، ومجدد القرن الأخير وخليفتيه سيدى العارف بالله الشيخ عبد السلام الحلاوانى ساكن ضريحه الأنور بقرافة ابن الفارض(الأن بمسجده بكفر تهرمس بالجيزة) ، وسيدى العارف بالله الشيخ على عقل ساكن ضريحه الأنور بالأسكندرية .

لى سادة من عزهم   معروفهم فوق الجباه

ان لم اكن منهم فلى   فى حبهم عز وجاه

أما وقد علمنا فى اجمال ، أن الصوفية هم خيار الأمة فى كل زمن ، وهم الأخذون دينهم بقوة تدفعهم الى محبة الله وايثاره تعالى على ما سواه ، فلننتقل الى التفصيل .

من هم الصوفية فى نظر أئمتهم ؟ :

وصف الامام أبو بكر الكلاباذى (المتوفى سنة ٣٨٠ هـ . ٩٩٠ م) الصوفية فى مقاماتهم وأحوالهم فقال :

(سبقت لهم من الله الحسنى ، والزمهم كلمة التقوى ، وعزف بنفوسهم عن الدنيا ، صدقت مجاهداتهم فنالوا علوم الدراسة ، وخلصت عليها معاملاتهم فمنحوا علوم الوراثة ، وصفت سرائرهم فأكرموا بصدق الفراسة ، ثبتت أقدامهم ، وزكت افهامهم ، وانارت أعلامهم ، فهموا عن الله ، وساروا الى الله ، وأعرضوا عما سوى الله ، خرقت الحجب أنوارهم ، وجالت حول العرش أسرارهم ، وجلت عند ذى العرش اخطارهم ، وعميت عما دون العرش أبصارهم ، فهم أجسام روحانيون ، وفى الأرض سماويون ، ومع الخلق ربانيون ، سكوت نظار ، غيب حضار ، ملوك تحت اطمار ، انزاع قبائل ، وأصحاب فضائل ، وأنوار دلائل ، آذانهم واعية ، واسرارهم صافية ، ونعوتهم خافية ، صفوية صوفية ، نورية صفية ، ودائع

الله بين خليفته ، وصفوته فى بريته ، ووصاياه لنبيه ، وخباياه عند صفيه ، هم فى حياته أهل صفته ، وبعد وفاته خيار أمته ، لم يزل يدعو الأول الثانى ، والسابق التالى بلسان فعله ، أغناه ذلك عن قوله) .

واذا ركزنا هذا التعريف قلنا انهم أولياء الله ، الذين وصفوا فى القرآن بقوله تعالى (الا ان أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون * الذين آمنوا وكانوا يتقون * لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم) [١] .

بماذا يتميزون :

وقد بين امامنا على بن أبى طالب كرم الله وجهه الفرق بين مسلك هؤلاء الأولياء ومسلك غيرهم فقال (هم الذين نظروا الى باطن الدنيا ، اذا نظر الناس الى ظاهرها ، واشتغلوا بآجلها ، اذا اشتغل الناس بعاجلها ، فأماتوا منها ما خشوا ان يميتهم ، وتركوا منها ما علموا انه سيتركهم ، ورأوا استكثار غيرهم منها استقلالا ، ودركهم لها فوتا ، أعداء ما سالم الناس ، وسلم ما عادى الناس ، بهم علم الكتاب ، وبه علموا ، وبهم قام الكتاب ، وبه قاموا) .

حاجة الناس اليهم :

وبين كرم الله وجهه حاجة الناس اليهم فى هذه الدنيا فقال لجابر بن عبد الله الأنصارى : (يا جابر ، قوام الدنيا بأربعة : عالم مستعمل علمه ، وجاهل لا يستنكف أن يتعلم ، وجواد لا يبخل بمعرفه ، وفقير لا يبيع آخرته بدنياه)) .

وزاد كرم الله وجهه شرحا فقال : (فاذا ضيع العالم علمه ،

---
[١] الآيات ٦٢ ـ ٦٤ من سورة يونس .

استنكف الجاهل أن يتعلم ، واذا بخل الغنى بمعرفه ، باع الفقير آخرته بدنياه) .
(يا جابر ، من كثرت نعم الله عليه ، كثرت حوائج الناس اليه فمن قام لله فيها بما يجب ، عرضها للدوام والبقاء ، ومن لم يقم ، مرضها للزوال والفناء) .

وصف علمهم :

وقال كرم الله وجهه فى وصف علمهم : (عقلوا الدين عقل وعاية ورعاية ، لا عقل سماع ورواية ، فان رواة العلم كثير ، ورعاته قليل) .

مقارنة بينهم وبين أهل المال :

وقال كرم الله وجهه فى التمييز بين أهل المال وهؤلاء العلماء الربانيين : (هلك خزان الأموال وهم احياء ، والعلماء باقون ما بقى الدهر ، أعيانهم مفقودة ، وأمثالهم فى القلوب موجودة) .

وهذه الكلمة الأخيرة (أعيانهم مفقودة وأمثالهم فى القلوب موجودة) هى التى شجعتنى فى القاء هذه المحاضرة ، لنتشبه ما استطعنا الى ذلك سبيلا ، وقد جاء فى حكمه كرم الله وجهه (ان لم تكن حليما فتحلم ، فانه قل من تشبه بقوم الا أوشك ان يكون منهم) واقول قياسا على هذه الحكمة البالغة : ان لم تكن صوفيا فتصوف .

دعائم التربية الصوفية

يتخفف الصوفية فى معاشهم ، ويتزودون لمعادهم ، ويضعون نصب أعينهم ، انهم خلقوا للآخرة لا للدنيا ، وان الدنيا فانية منقطعة ، والآخرة باقية متصلة ، ولا يجوز فى نظرهم أن يطغى الفانى على الباقى .

ويقولون : ليس للعاقل ان يكون شاخصا الا فى ثلاث : (١) مرمة

لمعاش ، (٢) أو خطوة فى معاد ، (٣) أو لذة فى غير محرم ، وسأتكلم عن مسلكهم فى كل واحدة منها .

١ – مرمة المعاش

أجمع الصوفية على اباحة المكاسب من الحرف والتجارات والحرث وغيرها مما أباحته الشريعة ، ولكنهم يتحرزون فى كسبهم من الشبهات .

وقد قال ابراهيم بن أدهم وهو من أعلام الصوفية : (عليك بعمل الأبطال : الكسب من الحلال ، والنفقة على العيال) .

وقال سهل بن عبد الله : ((من طعن الاكتساب ، فقد طعن على السنة ، ومن طعن على التوكل ، فقد طعن على الايمان) .

وكان عبد الله بن المبارك يقول : ((مكاسبك لا تمنعك عن التفويض والتوكل اذا لم تضيعهما فى كسبك)) .

وقد سئل بعض الصوفية وكان يتكلم فى فضل المكاسب : هل نحن مستعبدون بالكسب او بالتوكل ؟ فأجاب : التوكل حال الرسول ، والكسب سنة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وانما استن للناس الكسب لعلمه بضعفهم ، حتى اذا سقطوا عن درجة التوكل التى هى حاله ، لا يسقطون عن درجة طلب المعاش التى هى سنته ، ولولا ذلك لهلكوا .

واذا بلغ أحد الصوفية درجة التوكل الحق ، اغناه الله عن أسباب الكسب بما شاء ، وقد أيد القرآن الكريم ذلك فى مثل قوله تعالى (كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا قال يامريم أنى لك هذا قالت هو من عند الله ان الله يرزق من يشاء بغير حساب) [1] .

---

[1] آية ٣٧ سورة آل عمران .

وقد سئل امامنا على كرم الله وجهه : (كيف يأتى الرزق لرجل تغلق عليه الدار) ، فقال : (كما يأتيه اجله) .

ولا شأن لنا بأدعياء التوكل الذين يعيشون على حساب غيرهم ويدعون التوكل ويحسبون انهم يحسنون صنعا ، وقد قال امير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه (كنت أرى الشاب فيعجبنى منظره ، فاذا قيل لى لا حرفة له سقط من عينى) .

ومن طريف ما وقفت عليه ، أن شابا جاء الى الامام أحمد بن حنبل رضى الله عنه وقال له ، سأذهب الى الحج ولا اتزود لأنى سأتوكل على الله ، فسأله الامام ، تخرج وحدك أو تخرج مع القافلة فقال : بل مع القافلة ، فقال الامام . وما أبدع ما قال . انت لا تتكل على الله ، انما تتكل على اخراج الناس .

حذر الصوفية من فتنة المال :

يجمع الصوفية المال من حلال طيب ، ولكنهم يجمعونه للحقوق لا للحظوظ ، ويرون أنفسهم مبتلون بالمال ، ومستخلفون فيه ، ويتصرف الواحد منهم فيما يأتيه ، تصرف الوكيل ، الذى يتصرف فى مال موكله باذنه ، وهم يتشبهون فى ذلك بأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حين جعلوا الأموال فى أكفهم لا فى قلوبهم فأنفقوها طيبة بها نفوسهم ، فيما يرضى الله تعالى ، ولهذا خرج الإمام أبو بكر الصديق رضى الله عنه ، من كل ماله فى سبيل الله وحين سأله رسول الله صلى الله عليه وسلم : وما الذى ابقيت لعيالك ، قال : ابقيت لهم الله ورسوله .

وخرج امير المؤمنين عمر رضى الله عنه من نصف ماله وأبقى النصف له والعياله .

وأما أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله عنه ، فكان يقول : لولا انى خشيت أن يكون فى الاسلام ثلمة أسدها بهذا المال ما جمعته ، ومن تمكنه فى عدم المبالاة بالمال ، كان الانفاق أحب اليه

من الامساك ، حتى لقد جهز جيش العسرة بعشرات الآلآف ، وحتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ما ضر عثمان ما عمل بعد هذا) .

وأما امامنا على كرم الله وجهه ، فقد وقف على باب الخزانة وقال : (ياصفراء ، ويا بيضاء ، غرى غيرى) .

وزهده فى الدنيا أشهر من أن يذكر ، وما احسب ان احدا من الصحابة رضوان الله عليهم ابدع فى وصف الدنيا خيرا منه ، فقد قال فيها اقواله الخالدة ومنها :

قوله : الدنيا تغر وتضر وتمر ، ان الله تعالى لم يرضها ثوابا لأوليائه ، ولا عقابا لأعدائه .

وقوله الزهد كله بين كلمتين من القرآن (لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم) [١] ، ومن لم يأس على الماض ، ولم يفرح بالآتى ، فقد أخذ الزهد بطرفيه .

وقوله فى الذين خاضوا غمراتها وافتتنوا بزينتها حتى الهتهم عن الآخرة التى هى خير وابقى: سلكت بهم الدنيا طريق العمى ، وأخذت بأبصارهم عن منار الهدى ، فتاهوا فى حيرتها ، وغرقوا فى نعمتها ، واتخذوها ربا فلعبت بهم ، ولعبوا بها ونسوا ما وراء ها .

ولا عجب أن يبلغ زهد الصحابة ما بلغ ، فقد القوا السمع للقرآن والسنة وهم شهداء ، فاتعظوا علما وعملا بمثل قوله تعالى (انا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم ايهم أحسن عملا * وانا لجعلون ما عليها صعيدا جرزا) [٢] ، وبمثل حديث رسول الله الذى رواه أنس بن مالك رضى الله عنه ، وقال فيه صلوات الله عليه

---

[١] آية ٢٣ من سورة الحديد .

[٢] آية ٧ ،٨ من سورة الكهف .

(من اخذ من الدنيا من الحلال حاسبه الله به ، ومن أخذ من الدنيا من الحرام عذبه الله به ، أف للدنيا وما فيها من البليات ، حلالها حساب ، وحرامها عذاب)) .
وقد تأثر الصوفية فى زهدهم بأحوال الصحابة رضوان الله عليهم ، فارسلوا حكمهم الصادقة محذرين من فتنتها ، فمثلا يقول شقيق البلخى : (أحذر الا تهلك بالدنيا ، ولا تهتم ، فان رزقك لا يعطى لا حد سواك) ، ويقول : عملت فى القرآن عشرين سنة حتى ميزت الدنيا من الاخرة ، فأصبته فى حرفين ، وهو قوله الله تعالى (وما أوتيتم من شىء فمتاع الحياة الدنيا وزينتها وما عند الله خير وابقى) [١] . ويقول : (الزاهد الذى يقيم زهده بعقله ، والمتزهد الذى يقيم زهده بلسانه) ، ويقول (ميز بين ما تعطى وتعطى . ان كان من يعطيك احب اليك ، فانك محب للدنيا ، وان كان من تعطيه احب اليك ، فانك محب للآخرة) ، ويقول (ليس شئ أحب الى من الضيف ، لأن رزقه ومؤنته على الله ، ولى اجره) ، ويقول (اذا اردت أن تكون فى راحة ، فكل ما أصبت ، والبس ما وجدت ، وارض بما قضى الله عليك) .
ويقوى الصوفى على الزهد فيما يجتمع له من المال بالوسائل الآتية :
١- يقينه بأن الرزق مقسوم له قبل أن يأتى الى هذا الوجود ، ولا يغيب عنه قوله الله تعالى (وفى السماء رزقكم وما توعدون * فورب السماء والأرض انه لحق مثل ما انكم تنطقون) [٢].
ومن حكمهم البالغة قولهم : (من صدق فى زهده ، اتته الدنيا راغمة) ، وهذه الحكمة مستمدة من قوله تعالى (ومن يتقى الله يجعل له مخرجا * ويرزقه من حيث لا يحتسب) [٣] .

---
[١] آية ٦٠ من سورة القصص .
[٢] آيتان ٢٢ ، ٢٣ من سورة الذاريات .
[٣] آينان ٢ و ٣ من سورة الطلاق .

٢- يقينه بأن الله تعالى يبتلى بالشر والخير فتنة ، ولا يغيب عنه قوله تعالى (ونبلوكم بالشر والخير فتنة والينا ترجعون) [١] ولا يغيب عنه الإعتبار بمن مضى مثل ما كان من أمر (قارون) حيث فتنه المال ، فلم يبتغ فيما آتاه الله الدار الآخرة ، ولم يحسن كما أحسن الله اليه ، بل قال مفتونا ، انما أوتيته على علم عندى ، فخسف الله به وبداره الأرض ، فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله ، وما كان من المنتصرين .

٣- ان المرء لا يحتاج مما يجمعه الا ما هو ضرورى ، وما زاد فهو فضل ، يجب ان يشترى به رضاء الله الذى اغناه ، ومن أقوالهم الماثورة ، (الدنيا كلها فضول الا خمس خصال : خبز يشبعه ، وماء يرويه ، وثوب يستره ، وبيت يكنه ، وعلم يستعمله) وهذا القول مستمد من حديث حبيبنا المصطفى صلى الله عليه وسلم (يقول ابن آدم مالى مالى ، وهل لك يا ابن آدم من مالك الا ما اكلت فأفنيت ، أو لبست فأبليت ، أو تصدقت فأبقيت) .

٤- ويداوم الصوفى على تذكر الموت اتعاظا بقوله تعالى (كل من عليها فان * ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام [٢] وامتثالا لقول حبيبنا المصطفى صلى الله عليه وسلم (اكثروا ذكر هازم اللذات) .

وقد كان نقش الخاتم الذى يلبسه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه (كفى بالموت واعظا ياعمر) وكان أمامنا على كرم الله وجهه يقول (من ارتقب الموت سارع الى الخيرات) .

وكانت السيدة (رابعة العدوية) رضى الله عنها تتمثل بقول القائل :

اذا صح منك الود فالكل هين وكل الذى فوق التراب تراب

---

[١] آية ٣٥ من سورة الأنبياء .

[٢] الآيتان ٢٦ ، ٢٧ من سورة الرحمن .

والصوفية يروون عن لقمان الحكيم عليه السلام انه قال لابنه :
(يابنى ، أمر لا تدرى متى يلقاك ، فاستعد له قبل أن يفجأك) .
وروى عن عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه أنه قال فى احدى خطبه :
(الا ترون انكم تنقلبون فى أسلاب الهالكين ، ويرثها منكم الباقون كذلك ، حتى ترد الى خير الوارثين ، وانتم تجهزون كل يوم غاديا أو رائحا الى الله عز وجل ، تضعونه فى صدع من الارض ، ثم فى بطن صدع ، قد توسد التراب ، وخلف الأحباب ، وقطع الأسباب ، موجه للحساب ، غنى عما خلف ، فقير الى ما قدم) .
والصوفية يهيجون أنفسهم فى تذكر الموت بالاعتبار بمن مضى قبلهم ممن كان أشد قوة وأكثر جمعا ، وتقشعر جلودهم بآيات الاعتبار حين يتلون مثل قوله تعالى (هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا) [١] قال أبن عباس رضى الله عنه فى معناها (هل تسمع لهم صوتا يخبرك أن الموت قد أهمدهم فلا حس ولا صوت ؟) .
على أن الصوفية فى زهدهم ليسوا بدرجة واحدة ، بل هم درجات ، وكلهم على خير ان شاء الله ، فمنهم من ترك الدنيا كلها وخرج من جميع ما يملك ، وجلس كما يقولون ، على بساط الفقر والتجريد بلا علاقة ، وهؤلاء اقتدوا فى مسلكهم هذا بالامام (أبى بكر الصديق) رضى الله عنه ، ومنهم من أخرج شطر ماله وترك الشطر لعياله ورحمه ، وهؤلاء اقتدوا بأمير المؤمنين (عمر بن الخطاب) رضى الله عنه ، ومنهم من جمع لله ، ومنع لله ،

---

[١] آية ٩٨ ك سورة مريم .

واعطى لله ، وانفق لله ، وهؤلاء اقتدوا بأمير المؤمنين (عثمان ابن عفان) رضى الله عنه ، ومنهم من لم يحم حول الدنيا ، وان جمعت عليه ، من غير طلب رفضها ، وهرب منها ، وهؤلاء يقتدون بامامنا (على بن أبى طالب) كرم الله وجهه .

وقد حكى عن (سهل بن عبد الله) رحمه الله أنه قال (ربما يملك العبد الدنيا ويكون أزهد الخلق فى زمانه ، فقيل له : مثل من ؟ فقال مثل (عمر بن عبد العزيز) .

ومن حكمهم البالغة قولهم : ازهد فى الدنيا يبصرك الله عوراتها ، ولا تغفل فلست بمغفول عنك .

ويقول امامنا (على بن أبى طالب) وما أروع ما يقول (من هوان الدنيا على الله أنه لا يعصى الا فيها ، ولا ينال ما عنده الا بتركها) .

وقد وافانى صديقى العالم الفاضل الشيخ الصاوى شعلان . بدرر مختارة من كلام الصوفى الكبير (جلال الدين الرومى) ، الوارد فى كتاب المثنوى ، الذى يتولى الشيخ ترجمته للعربية ، صيانة لهذا التراث القديم ، وسيتابعنا به جزءا قريبا حتى يتم ، وهو عمل كبير ولكن همة الشيخ اكبر منه ، والله المستعان .

يقول ابن الرومى ناصحا لنا فى هذا المقام :

(ليس الزهد أن تترك الدنيا من يدك وهى فى قلبك ، بل الزهد أن تتركها من قلبك وهى فى يدك) .

(ولقد كان الأولون حريصين على ترك الحرص ، وكانوا فى بعض ما أحل لهم أزهد منا فيما حرم لكبائر المعاصى ، حتى كادوا يفوقون بفطرهم صومنا ، ويتحدون بنومهم يقظتنا ، وربما تركوا سبعة أبواب من الحلال من أجل باب من الحرام يخشونه ، فعملوا

صالحا ، وكسبوا حلالا ، وأكلوا طيبا ، وانفقوا برا ، وقدموا أجرا ، فعش أيها المؤمن فى ذكراهم كأنك معهم ، ولا تسلط الهوى فى نفسك ، ولا تدع الأحجار المتراكمة من الخطايا تحطم قلبك فإن الفخار اذا انكسر لا يرقع ولا يعاد طينا) .

(اسع الى كسب الزق من بيدر (جرن) اللطيف الخبير ، واجعل القناعة من كسبك ، والرضا أفضل رزقك) .

(واعلم ان الدنيا لو كلها طوع يدك ، ما كان لك سوى القوت ، فلا تأكل فى سبعة أمعاء).

(ان أموال قارون لم تزده لحظة على العمر المقدور ، وان (الاسكندر الأكبر) قهر الجيوش الزاحفة ثم زحف عليه الأجل المحتوم وقهره فى الوقت المعلوم) .

(اقرأ ما كتب الرحمن فى صحائف الأكوان ، ولا تجعل الظواهر منتهى بصرك ومبلغ علمك ، حتى لا تحجب الحقيقة عن عينك ، وتنحرف بك الأهواء عن سبيلها) .

(أيها المؤمن .. ان آثام اليوم هى عقارب الغد ، وسكرة الدنيا هى لهيب العطش فى صحراء القيامة) .

(ان الظواهر أضلت ابليس ، فلم ير من جوهر آدم سوى الماء والطين ، واضلت الظواهر أبا جهل حين نظر بعينه الى سيدنا محمد القرشى صلى الله عليه وسلم ، فلم ير سيدنا محمدا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم) .

(وما ذنب البستان اذا قصرت فى جنى ثماره ؟ وما ذنب النهار اذا أغمضت العين عن شهود أنواره ؟) .

(أيها المؤمن .. أسق ورد الطاعات من دموع توبتك حتى تستروح الفردوس انسام صلواتك ، وتستقبل الحور هدايا الطيب والعطر من حسناتك ، وتنظم عقود الجواهر من تسبيحاتك) .

(سبحان من قدر فهدى ، ووفق كل كائن الى الغاية من فطرته ، ان الهام النحل هو الشهد ، والهام حشرة القز نسج الحرير ، والهام البلبل أغانى السحر ، والهام رجال الله نور يشهدون به ملكوت السماوات والأرض) .

(صدقوهم . هم مصابيح الدجى ، أكرموهم هم مفاتيح الرجا) .

(اتبعوا من لا يسألكم أجرا وهم مهتدون) .

٢- خطوة المعاد

يهدف الصوفية فى سعيهم للآخرة الى هدفين هما :

١- معرفة الله ، ٢- وايثاره تعالى على ما سواه .

ولا يكتفى الصوفى بهدفين ، بل يجاهد حتى يصيبهما معا ، وبالهدف الأول يصل الى مقصوده ، وبالثانى يصل الى مطلوبه ، لأن الشعار الذى يهتف به من وجدانه (الهى .. أنت مقصودى .. ورضاك مطلوبى) .

وأهل التوحيد كثيرون ، ولكن أهل الايثار قليلون ، ولذلك يقول الصوفية بحق (أهل لا اله الا الله كثير ، والمخلصون قليل)

الهدف الأول . معرفة الله :

أما عن المعرفة فهى عندهم معرفتان : معرفة حق ، ومعرفة حقيقة ، فمعرفة الحق : هى معرفة وحدانيته ، اما معرفة الحقيقة فلا سبيل اليها لا متناع الصمدية وتحقيق الربوبية ، لقوله عز وجل : (ولا يحيطون به علما) [١] ، وقد قال الامام (أبو نصر السراج الطوسى) صاحب (اللمع) فى معنى قولهم : لا سبيل اليها ، معناها لا سبيل الى المعرفة على الحقيقة ، لأن الله تعالى

---

[١] الآية ١١٠ من سورة طه .

أبرز لخلقه من أسمائه وصفاته ما علم انهم بطيقونه ، ذلك لأن حقيقة معرفته لا يطيقها الخلق ، ولا ذرة منها ، لأن الكون بما فيه يتلاشى عند ذرة من أول باد يبدو من بوادى سطوات عظمته ، فمن يطيق معرفة من يكون هذا صفة من صفاته ، ولذلك قال القائل ما عرفه غيره ، ولا أحبه سواه ، لأن الصمدية ممتنعة عن الاحاطة والادراك ، وقد حكى فى هذا المعنى عن الامام (أبى بكر الصديق) رضى الله عنه انه قال : سبحان من لم يجعل للخلق طريقا الى معرفته ، الا بالعجز عن معرفته .

وقد قيل (لأبى حسين النووى) رحمة الله كيف لا تدركه العقول ، ولا يعرف الا بالعقول ؟ فقال : كيف يدرك ذو أمد من لا أمد له ، أم كيف يدرك ذو عاهة من لا عاهة له ، أم كيف يكون مكيفا من كيف الكيف .

ومن كلام بعضهم ان قلت متى ، فقد سبق الوقت كونه وان قلت اين ، فقد تقدم المكان وجوده ، ليس لذاته تكييف ولالفعله تكليف .

وأجمع الصوفية على أنه تعالى لا تدركه العيون ، ولا تهجم عليه الظنون ، ولا تتغير صفاته ، ولا تتبدل اسماؤه ، لم يزل كذلك ، ولا يزال كذلك ، هو الأول والآخر ، والظاهر والباطن ، وهو بكل شئ عليم ، ليس كمثله شئ ، وهو السميع البصير .

ويقول امام الصوفية (الجنيد) رضى الله عنه : (أشرف المجالس واعلاها ، الجلوس مع الفكرة فى ميدان التوحيد) ، وقد سئل (ذو النون المصرى) رضى الله عنه عن قوله تعالى : (الرحمن على العرش استوى) [١] فقال : أثبت ذاته ، ونفى مكانه ، فهو موجود بذاته ، والأشياء موجودة بحكمة كما شاء سبحانه

---

[١] الآية ٥ من سورة طه .

وتعالى ؛ وسئل (الشبلى) عن قوله تعالى (الرحمن على العرش أستوى) [١] ، فقال الرحمن لم يزل والعرش محدث ، والعرش بالرحمن استوى ؛ وسئل (جعفر بن نصير) عن قوله تعالى (الرحمن على العرش استوى) ، فقال استوى علمه بكل شئ ، فليس شئ اقرب اليه من شئ ؛ وقال الامام (جعفر الصادق) من زعم أن الله فى شئ ، أو من شئ ، او على شئ ، فقد أشرك ، اذ لو كان على شىء ، لكان محمولا ، ولو كان فى شىء ، لكان محصورا ، ولو كان من شىء ، لكان محدثا .

ولا عجب فالامام (جعفر) سليل العالم الموهوب الامام (على) كرم الله وجهه الذى قال (الاستواء معلوم والكيف مجهول) .

ثم ان الصوفية يقولون ، ان أول فرض افترضه الله على خلقه ، هو المعرفة لقوله عز وجل : (وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون) [٢] ، قال (ابن عباس) معناها (الا ليعرفون) .

وقال الامام (الجنيد) : ان أول ما يحتاج اليه العبد من عقد الحكمة . معرفة المصنوع صانعه ، والمحدث كيف كان احداثه ، فيعرف صفة الخالق من المخلوق ، وصفة القديم من المحدث ، ويذل لدعوته ، ويعترف بوجوب طاعته ، فان من لا يعرف مالكه ، لم يعترف بالملك لمن استوجبه .

وقال ابن عطاء : تعرَّف سبحانه وتعالى الى العامة بخلقه ، لقوله تعالى (افلا ينظرون الى الابل كيف خلقت * والى السماء كيف رفعت * والى الجبال كيف نصبت * والى الأرض كيف سطحت) [٣] وتعرف الى الخاصة بكلامه وصفاته لقوله تعالى

---

[١] الآية ٥ من سورة طه .
[٢] الآية ٥٦ من سورة الذاريات .
[٣] الآيات من ١٧ الى ٢٠ من سورة الغاشية .

(أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا) [١] ، وقولـه تعالى (وننزل من القرآن ماهو شفاء ورحمـة للمؤمنين) [٢] وقولـه تعالى (ولله الاسماء الحسنى) [٣] وتعرف الى الأنبياء بنفسه كما قال تعالى (وكذلك أوحينا اليك روحا من امرنا) [٤] .

وقال بعض كبار المشايخ انـه تعالى عرفنا نفسه فقال (الست بربكم) [٥] ولم يقل من أنا ، فتهجم العقول عليهم حين بدا معرفا فلذلك انفرد عن العقول ، والعقل آلـة للعبد يعرف به ما عرف ، وهو بنفسه لا يعرف الله تعالى ، لأن العقل آلة للعبودية ، لا للاشراف على الربوبية.

وقد قال رجل (للنورى) ما الدليل على (الله) ؟ قال (الله) ، قال (فما العقل ؟) ، قال (العقل عاجز ، والعاجز لا يدل الا على عاجز مثله) ، وقال غيره (العقل يجول حول الكون ، فإذا نظر الى المكون ذاب) .

وقال بعضهم (لا يعرفه الا من تعرف اليه) أى من تعرف الله اليه ، ولا يوحده الا من توحد له (أى أراه لنه واحد) ، ولا يؤمن به الا من لطف الله به ، ولا يصفه الا من تجلى لسره ، ولا يخلص له من جذبه اليه ، ولا يصلح له الا من اصطنعه لنفسه .

واجمعت كلمة الصوفية على أنه تعالى ، واحد ، احد ، فرد ، صمد ، قديم ، عالم ، قادر ، حى ، سميع ، بصير ،

---

[١] الآية ٨٢ من سورة النساء .
[٢] الآية ٨٢ من سورة الاسراء .
[٣] الآية ١٨٠ من سورة الاعراف .
[٤] الآية ٥٢ من سورة الشورى .
[٥] الآية ١٧٢ من سورة الأعراف .

عزيز ، عظيم ، جليل ، كبير ، جواد ، رءوف ، متكبر ، جبار ، باق ، أول ، اله ، سيد ، مالك ، رب ، رحمن ، رحيم ، مريد ، حكيم ، متكلم ، خالق ، رزاق ، موصوف بكل ما وصف به نفسه من صفاته ، مسمى بكل ما سمى به نفسه ، لم يزل قديم بأسمائه وصفاته ، غير مشبه للخلق بوجه من الوجوه ، لا تشبه ذاته الذوات ، ولا صفته الصفات ، لا يجرى عليه صفة من صفات المخلوقين الدالة على حدوثهم ، لم يزل سابقا متقدما للمحدثات ، موجودا قبل كل شىء ، لا قديم غيره ولا اله سواه .

ليس بجسم ، ولا شبح ، ولا صورة ، ولا شخص ، ولا جوهر ، ولا عرض ، اجتماع له ولا افتراق ، لا يتحرك ولا يسكن ، ولا ينقص ولا يزداد ، ليس بذى أبعاض ولا أجزاء ، ولا جوارح ولا أعضاء ، ولا بذى جهات ولا أماكن ، لا تجرى عليه الآفات ، ولا تأخذه السنات ، ولا تداوله الأوقات ، ولا تعينه الإشارات ، لا يحويه مكان ، ولا يجرى عليه زمان ، لا تجوز عليه المماسة ولا العزلة ، ولا الحلول فى الأماكن ، لا تحيط به الأفكار ، ولا تحجبه الأستار ، ولا تدركه الأبصار ، سبحانه جل جلاله .

وهم لا يميلون للجدل الذى خاضه أهل الكلام ، والذى لم يأت الا بتشويش العقول ، وارائها فى مذاهب الحيرة المقلقة ، أو الفتنة المضللة ، ومن حكمهم فى هذا المقام قولهم : (اذا أراد الله بعبد خيرا ، فتح له باب العمل ، وأغلق عليه باب الجدل ، واذا أراد الله بعبده شرا ، فتح له باب الجدل ، وأغلق عليه باب العمل) ، وقد قال الامام (أحمد بن حنبل) رضى الله عنه لسيدى (معروف الكرخى) حين سمع منه الكلام المتقدم ، حسبى وحسبك هذه الكلمات اليوم فهى جماع الهدى ، وكان رضى الله عنه يختلف الى معرف ويسأله فى بعض المسائل ، وعند اعترض عليه بعض

الناس وقالوا مثلك يسعى لمعرف الكرخى ؟ فقال (وماذا نفعل اذا لم نجد حكما فى كتاب الله ولا سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال سلوا الصالحين) .

وكان الامام (مالك) رضى الله عنه يقول : لا احب من الكلام الا ما كان تحته عمل ، وصدق الامام ، لأن العلم ليس غاية ، بل هو وسيلة للعمل ، ولذلك كان رضى الله عنه لا يجيب الا على السؤال الذى يرى فائدة من الاجابة عليه ، ويسكت عن غيره ، وما أروع جوابه على من سأله فى قوله تعالى : (الرحمن على العرش استوى) فقال (الاستواء معلوم والكيف مجهول ، والسؤال عنه بدعة ، والايمان به واجب ، اخرجو عنى هذا الزنديق) .

وليت شعرى ، ما الذى افاده المسلمون من فتنة القول بخلق القرآن التى قامت زمن المأمون ، وجلد فيها اجلاء العلماء وحبسوا ، ليحملوا عليها قسرا بقوة السلطان ، لا بقوة البرهان ، وهى أوهى من بيت العنكبوت لو كان يعلمون ، وقد استمرت تلك الفتنة العمياء الى زمن (الواثق) ، حتى أبطلتها نادرة اطلقها متندر دخل على (الواثق) ، وقال له : (عظم الله اجرك يا أمير المؤمنين) ، قال (فيمن) ، قال (فى القرآن) ، قال (ويحك ، أويموت القرآن) ، قال (كل مخلوق يموت) ، واستمر المتندر يقول ، (ومن يصلى بنا التراويح بعد ان مات القرآن ؟) فقال الخليفة (بحسبك ، اخرجوا من السجون) .

وانت تعلم ان الصحابة رضوان الله عليهم ، لم يجادلوا فى الدين ذلك الجدل المعوق المضلل ، بل علموا ما علمهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فى القرآن والسنة ، وعملوا بهمة اتعبت من بعدهم ، فلم يلحقهم لاحق ، وكانوا السابقين الأولين رضى الله

عنهم أجمعين ، ويشير مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم الى فضلهم بقوله : (الله الله فى أصحابى ، فلو أنفق أحدكم مثل أحد ذهبا ، ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه) .

وها هو ذا امير المؤمنين ، الامام (على) كرم الله وجهه ، يقول فى وصيته لابنه مولانا (الحسن) رضى الله عنه : (واعلم يابنى ان أحدا لم ينبئ عن الله كما انبا عنه الرسول صلى الله عليه وعلى آله ، فارض به رائدا ، والى النجاة قائدا) .

ويقول الامام (الجنيد) رضى الله عنه : (الطرق كلها مسدود على الخلق ، الا من اقتفى أثر الرسول صلى الله عليه وسلم . واتبع سنته ، ولزم طريقته ، فان طرق الخيرات كلها مفتوحة عليه وهذا مؤيد فى القرآن الكريم بقوله تعالى (لقد كان لكم فى رسول الله اسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا) [١] . واستدل الامام (محيى الدين بن عربى) ، على عصمة الرسول صلى الله عليه وسلم بهذه الآية فقال (ان رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة ، فعصمه الله من الوقوع فى الصغيرة والكبيرة ، حتى لا يتأ سى به احد فيهما) ، وزاد رضى الله عنه ايضاحا ، فقال (لا .. بل انه فيما أبيح له خاصة ، نبه الله اليه ، حتى لا يقلده فيه مقلد) ، ومثل رضى الله عنه لذلك بنكاح الهبة ، فانه تعالى قال له (وامرأة مؤمنة ان وهبت نفسها للنبى ان اراد النبى أن يستنكحها خالصة لك دون المؤمنين) [٢] .

المعرفة تؤدى الى التوحيد ، والتوحيد يؤدى الى الطاعة :

والصوفية يقولون ، ان اول الدين معرفة الله ، وكمال معرفته التصديق ، وكمال التصديق به توحيده ، وكمال توحيده الاخلاص له يقتضى الائتمار بأمره ، والانتهاء بنهيه .

---

[١] الآية ٢١ من سورة الأحزاب .
[٢] الآية ٥٠ من سورة الأحزاب .

وهم يعظمون الأوامر والنواهى الالهية ، لأنها أوامر الرب ونواهيه إلى مربوبية ، ويرون أن استشعار السيادة الالهية ، يوجب عليهم تنفيذها ، دون خروج عليها ، أو ملل منها .

وهم يعتقدون أن هذه الأموار والنواهى ، لم تصدر عن الله الا لاسعاد العباد ، فى دنياهم وأخراهم ، لأنهم آمنوا بما قال الله فى كتابه العزيز (يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغنى الحميد) [١] ، وبما جاء فى الحديث القدسى المعروف : (يا عبادى ، انكم لن تبلغوا ضرى فتضرونى ، ولن تبلغوا نفعى فتنفعونى ، يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وانسكم وجنكم كانوا على أتقى قبل رجل واحد منكم ، ما زاد ذلك فى ملكى شيئا ، يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وانسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ، ما نقص ذلك من ملكى شيئا)
.

وهم يعلمون ثمرات الأوامر والنواهى ، كما علمها أسلافهم الصحابة الأخيار رضوان الله عليهم ، من مثل ما بينه الامام (على) كرم الله وجهه من قوله :

فرض الله الايمان تطهيرا من الشرك . . .

والصلاة تنزيها عن الكبر . .

والزكاة تسبيبا للرزق . .

والصيام ابتلاء لاخلاص الخلق . .

والحج تقوية للدين . .

والجهاد عزا للاسلام . .

والأمر بالمعروف مصلحة للعوام . .

والنهى عن المنكر ردعا للسفهاء . .

---

[١] الآية ١٥ من سورة فاطر .

وصلة الرحم منماة للعدد . .

والقصاص حقنا للدماء . .

واقامة الحدود اعظاما للمحارم . .

وترك شرب الخمر تحصنا للعقل . .

ومجانبة السرقه إيجابا للعفة . .

وترك الزنا تحصينا للنسب . .

وترك اللواط تكثيرا للنسل . .

والشهادة استظهار على المجاحدات . .

وترك الكذب تشريفا للصدق . .

والسلام أمانا من المخاوف . .

والأمانات نظاما للأمة . .

والطاعة تعظيما لولاة الأمور ..

على أن للصوفية لا يبرئون البشرية من الوقوع فى الزلات ، وانما يوصون أهل الذنوب بالمسارعة إلى التوبة ، وهى باب واسع من أبواب رحمته تعالى ، غير أن التوبة عندهم ليست بدرجة واحدة ، فهم يقولون (شتان بين تائب يتوب من الزلات ، وتائب يتوب من الغفلات ، وتائب يتوب من رؤية الحسنات) .

وأنت ترى من هذا ، أن النظرة الفلسفية العالية ، لا تفارقهم حتى فى فهمهم للتوبة ، فالتوبة من الزلات عندهم انما تكون للعوام ، والتوبة من الغفلات انما تكون للخواص ، والتوبة من رؤية الحسنات انما تكون لخواص الخواص ، ولذلك فإنه ليس كل مستغفر عندهم تائبا ، حتى لقد قال بعضهم (استغفارنا يحتاج لاستغفار) .

وليس بدعا أن يتفاضل المؤمنون فى درجاتهم ، مع اشتراكهم جميعا فى المعتقدات ، اذ أنه لا يتصور أن يكونوا كلهم من السابقين بالخيرات ، الا أن تصورنا مثلا أن يكون الناس كلهم فلاسفة

أو أطباء ، وهو ما لم يقع ، لتفاوت الفهم والمشارب والثقافة ، وما لنا نذهب بعيدا والله تعالى يقول معددا درجات المؤمنين (ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله) [٢] .

والصوفية هم السابقون بالخيرات بإذن الله – ودليلى ما جاء فى الصحاح من أن ام المؤمنين السيدة (عائشة) رضى الله عنها ، سألت حبيبنا (المصطفى) صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى (والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة انهم إلى ربهم راجعون) [٣] . فقالت : يارسول الله ، أهم الذين يشربون الخمر ويسرقون ؟ قال (لا يا بنت الصديق ، بل هم الذين يصومون ويتصدقون ويخافون ألا يقبل منهم ، أولئك يسارعون فى الخيرات ، وهم لها سابقون) . ولم نجد ذلك الخوف فى أهل الايمان الاعند الصوفية .

وقولهم فى التوبة يقرب لنا فهم ما قاله امامنا (على بن أبى طالب) كرم الله وجهه حين قال لقائل بحضرته (استغفر الله . ثكلتك امك . اتدرى ما الاستغفار ؟ الاستغفار درجة العليين ، وهو اسم واقع على ستة معان :

أولها : الندم على ما مضى ..

والثانى : العزم على ترك العود أبدا ..

والثالث : أن تؤدى الى المخلوقين حقوقهم حتى تلقى الله أملس ليس عليك تبعة ..

والرابع : أن تعمد الى كل فريضة عليك ضيعتها فتؤدى حقها ..

والخامس : أن تعمد الى اللحم الذى نبت على السحت ، فتذيبه بالأحزان حتى تلصق الجلد بالعظم وينشأ بينهما لحم جديد ..

---

[٢] الآية ٣٢ من سورة فاطر .
[٣] الآية ٦٠ من سورة المؤمنين .

والسادس : أن تذيق الجسم ألم الطاعة كما أذقته حلاوة المعصية ، فعند ذلك تقول (أستغفر الله) ..

ولا عجب أن يقول أمامنا على كرم الله وجهه ما قاله ، بعد أن وصف الله توبة بعض الصحابة الذى تخلفوا عن غزوة تبوك بقوله تعالى (حتى اذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا ألا ملجا من الله الا اليه ثم تاب عليهم ليتوبوا ان الله هو التواب الرحيم) [١] .

العبادة الخاصة :

والصوفية فى عبادتهم لله ، يصدقون نية ويخلصون عملا ، لتكون عبادتهم صافية من الشوائب والعلل ، ويتأثرون فى ذلك بقوله تعالى (ألا لله الدين الخالص) [٢] . وبقوله صلى الله عليه وسلم : (ان الله طيب لا يقبل الا طيبا) .

لذلك نراهم يطهرون بواطنهم من خواطر السوء ، كما يطهرون ظواهرهم من النجاسة ، لا .. بل انهم يخلون قلوبهم من كل الحظوظ ، حتى لا يشغلها الا الله ، ويستدلون فى فناء الحظوظ بقوله تعالى (واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان امره فرطا) [٣] ، وبحديث ابن مسعود حين قال : ما علمت ان فى اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من يرد الدنيا حتى قال الله تعالى (منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة) [٤] ، ويقولون ان عبد الله ابن مسعود فى هذا المقام كان فانيا عن الدنيا .

---

[١] الآية ١١٨ من سورة التوبة .
[٢] الآية ٣ من سورة الزمر .
[٣] الآية ٢٨ من سورة الكهف .
[٤] الآية ١٥٢ من سورة آل عمران .

ويقول أستاذى العارف بالله الشيخ على عقل طيب الله ثراه ، وهو من صوفية عصرنا ، من الهاماته المشرقة التى دونتها عنه :

أخلى فؤادى له من كل شائبة ان عشت او مت أعضائى توحده
وكيف أرضى بغير الله متجها والكل والجزء والاحشاء تعبده
ومذ تغزلت فى ربى وما الفت روحى سواه تجافى الجفن مرقده
اذا سهرت فما أسهرت عن ملل لكنه الحب يدعونى وأشهده
اذا مددت يدى لله أسأله مدت الى بمعنى فضله يده

لذلك يقول أمامنا على كرم الله وجهه فى وصف المتقين (أنفسهم منهم فى عناء والناس منهم فى راحة) .

ويصف كرم الله وجهه العبادة الخالصة التى يتحلى بها الصوفية بأنها عبادة الأحرار ، اذ يقول:

(ان قوما عبدوا الله رغبة ، فتلك عبادة التجار ، وان قوما عبدوا الله رهبة ، فتلك عبادة العبيد ، وان قوما عبدوا الله شكرا ، فتلك عبادة الأحرار) .

ومن هنا قامت التربية الصوفية على جد لا هزل فيه ، وأخذوا فى عبادتهم بالعزائم ، لا بالرخص ، واحتاطوا لدينهم ما وسعهم الجهد ، حتى استبدلوا الأخلاق البشرية بالأخلاق الربانية ، فنور الله قلوبهم حتى فاضت بالحكمة ، ومن يؤتى الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا ، وقد قال حبيبنا (المصطفى) صلى الله عليه وسلم (من أحب أن ينظر الى عبد نور الله قلبه ، فلينظر الى (حارثة) ، فأخبر صلى الله عليه وسلم أنه منور القلب ، وقد قال (حارثة) حين سأله حبيبنا (المصطفى) صلى الله عليه وسلم (ما حقيقة ايمانك) ، قال ، (عزفت بنفسى عن الدنيا ، فأظمأت نهارى ، وأسهرت ليلى ، وكأنى انظر إلى عرش ربى بارزا ، وكأنى انظر الى أهل الجنة يتزاورون ، والى أهل النار يتعاوون) .

٣- اللذة فى غير محرم

أحل الله الطيبات وحرم الخبائث ، والصوفية يحلون ما أحل الله ، ويحرمون ما حرم ، وهم ان لجاوا الى اجتناب حلال ، فانما يقصدون به المجاهدة ، وصرف النفس عن هواها ، ورياضتها بالمخالفة ، وهم يتركون المباح خوف الوقوع فى المشبوه ، شأن الورعين من المتقين .

وفى الحلال الذى يتمتعون به يوجهون النية فيه لله ، فاذا طعموا الطعام مثلا ينوون أن تكون لهم بأكله فى عبادة الله قوة وهذه النية عندهم ، الذ من طعم الطعام ذاته ، وعندما يمضغون اللقمة ، يستشعرون النعمة ، ويشكرون واهبها سبحانه وتعالى واذا لبسوا اللباس ، ينوون به ستر العورة ، وأخذ الزينة للصلاة ليبعدوا أنفسهم عن التباهى أو التكاثر كما يقصد عامة الناس ، واذا أتوا نساءهم ، قصدوا ان يعفوا أنفسهم ونساءهم عن الحرام ، وأن يكون لهم بذلك صدقة ، حيث قال حبيبنا المصطفى صلى الله عليه وسلم (وفى بضع أحدكم صدقة) ، ولما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم (ناتى النساء بشهوة وتكون لنا صدقة ؟) ، قال لسائله ، (أرايت لو وضعتها فى حرام ، اكنت تؤزر ؟) ، قال نعم ، قال ، (فاذا وضعتها فى الحلال فانك تؤجر) ، وكان سيدنا عمر بن الخطاب يقول بنية أخرى لا تصدر الا من مثله ، حيث قال (ما أتيت أهلى بنية الشهوة ، ولكن بنية أن يرزقنى الله منها من يوحد الله ولا يشرك به شيئا) ، وكان رضى الله عنه يخاف أن تذهب طيباته فى الحياة الدنيا ، فقد طلب مرة ماء ، فأتى له شاب بعسل مشوب بالماء ، فنظر رضى الله عنه الى القدح الذى به الشراب وقال (أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا) ، فقال الشاب : (ليست هذه لمثلك ياأمير المؤمنين ، اقرأ ان شئت ما قبلها ،

(ويوم يعرض الذين كفروا على النار أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا) [١] .
كذلك كان رضى الله عنه يرضى باللباس الضرورى ، وقد حاول بعض الصحابة أن يحمله على تغير لباسه المتواضع ، فعهدوا الى مولانا (على بن أبى طالب) أن يكلمه فى الأمر ، فأشار عليهم بأن يرجعوا فى ذلك الى ام المؤمنين مولاتنا عائشة رضى الله عنها ، فكلمته ان يبدل ثيابه بأخرى أفخر منها ، فقال لها (يرضى الله عنك يا أم المؤمنين ، تريدون أن أغير ما كنت عليه فى زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم) .
وقصته رضى الله عنه حين أركبوه البرذون (السيسى) معروفة ، اذ قال لهم (أنزلونى ..) قالوا ، لم يا أمير المؤمنين ، قال ، (أخشى أن يداخلنى الغرور) .
ولا غرابة ان يرضى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غذائهم ، وكسائهم ، وسكنهم ، بالضرورى اليسير ، بعد أن رأوا من مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم تقشف الكمال ، وادخار السعة للمآل ، والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا .
الهدف الثانى . ايثار الله تعالى على ما سواه :
عرف الصوفية ربهم بوحدانيته تعالى ، وعلامة هذه المعرفة عندهم ، أن يرى العبد نفسه فى العزة وتجرى عليه تصاريف القدرة ، ولذلك يقولون : يجب أن يكون وقت العبد وقتا واحدا بلا تغيير ، ويكون العبد فى جميع أحواله بالله ، ولله ، مأخوذا عما سوى الله .
لذلك تراهم يفرقون بين المؤمن والعارف ، فيقولون ؛ ان المؤمن

---
[١] الآية ٢٠ من سورة الأحقاف .

ينظر بنور الله ، وأما العارف فينظر بالله ، ولهذا يطمئن المؤمن بذكر الله ، ولا يطمئن العارف بسواه .

وتراهم ينهون عن تضييع الوقت فيما لا يعنى ، ويقولون ناصحين : رأس مالك : قلبك ووقتك ، وقد شغلت قلبك بهواجس الظنون ، وضيعت أوقاتك باشتغالك بما يعنيك ، فمتى يربح من خسر رأس ماله ؟ .

وفى هذا المقام يقول امامنا الشافعى رضى الله عنه ، صحبت الصوفية فأخذت عنهم كلمتين : قولهم نفسك ان لم تشغلها بالحق شغلتك بالباطل ، وقولهم : الوقت كالسيف ان لم تقطعه قطعك .

وفى سبيل الوصول الى ايثار الله تعالى على ما سواه ، يجاهد الصوفية أنفسهم جهادا مريرا متواصلا لا هوادة فيه ، ويأخذون فى هذا الجهاد بالأسباب الآتية :

أولا ـ التفقه فى الدين : ويقول الامام الجنيد رضى الله عنه علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة .

ثانيا ـ العمل بالعلم : لأن العلم وسيلة للعمل ، وقد قال الامام أبو حنيفة رضى الله عنه لـ داود الطائى رضى الله عنه ،يا أبا سليمان ، أما الأداة فقد أحكمناها فقال له داود : فأى شىء بقى ؟ ، فقال : العمل بها فأخذ داود فى العمل ، وكانت هذه اللفتة سببا فى تصوف داود حتى صار من أعلام الصوفية .

ثالثا ـ الاقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم :

والصوفية فى سيرهم الى الله ، يقتدون برسول الله صلى الله عليه وسلم قولا ، وفعلا ، وعزما ، ونية ، لأنه الأسوة الحسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ، ولأن الله تعالى خاطبنا فقال (وان

تطيعوه تهتدوا) [٤] . وقال (قل ان كنتم تحبون الله فأتبعونى يحببكم الله) [٥] .

ومن كلامهم الطيب ، ما يقوله الامام الصوفى سهل ابن عبد الله : الدنيا كلها جهل الا ما كان منه العلم ، والعلم كله حجة الا ما كان العمل به ، والعمل كله هباء الا موضع الاخلاص فيه ، وأهل الاخلاص على خطر عظيم .

ويبرأ الامام السراج الطوسى صاحب اللمع ، من أدعياء التصوف ، الذين يخوضون فى علوم التصوف بلا دراية ، ويقول انهم كثروا فى زمانه ، وتكلموا بكلام غير مستحسن ، ويضيف الى ذلك قوله ان مشايخ التصوف الحق ، تكلموا فى مسائلهم ، ونطقوا بحكمهم ، بعد قطع العلائق ، واماتة النفوس بالمجاهدات والرياضات والمنازلات ، والوجد والاحتراق ، والمبادرة والاشتياق الى قطع كل علاقتهم عن الله عز وجل طرفة عين ، ولذلك قاموا بشرط العلم ، والحقيقة ، والعمل .

والناظر فى كلام الصوفية يرى أنهم عضوا على الكتاب والسنة بالنواجذ ، وتعمقوا فى فهمهما ، باعتبارها أداة العمل الموصل الى الله تعالى ، وخوفهم من الخروج عن أحكام الله بلغ من الشدة نهايتها فمثلا :

(أ) أنهم يفهمون من قوله تعالى (فاتقوا الله ما استطعتم) [٦] أنك لو صليت ألف ركعة ، واستطعت أن تصلى ركعة أخرى ، فأخرت ذلك الى وقت آخر ، فقد تركت استطاعتك ، ولو ذكرت الله تعالى ألف مرة ، واستطعت أن تذكره مرة أخرى ، فتؤخر ذلك

---

[٤] الآية ٥٤ من سورة النور .
[٥] الآية ٣١ من سورة آل عمران .
[٦] الآية ١٦ من سورة التغابن .

الى وقت ثانى ، فقد تركت استطاعتك ، وكذلك لو تصدقت على سائل بدرهم ، واستطعت أن تعطيه درهما آخر ، فلم تفعل ذلك ، فقد تركت استطاعتك .

(ب) كذلك يقولون فى قوله تعالى (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى انفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما) [1] أنهم لو وجدوا فى أنفسهم حرجا ، أى فى قلوبهم واسرارهم وباطنهم ضيقا أو كراهة فى حكمه ، لو أنه حكم عليهم بالقتل ، فقد خرجوا من الايمان ، واقسم الله على خروجهم من الايمان ، ثم يقولون فلو قسمنا ذلك على ما أمرنا الله تعالى به من الصبر على أحكام الله عز وجل ، والرضا بما قسم الله لنا من الأخلاق والأرزاق والآجال والأعمال ، لم نجد معنا ومع كثير من الناس ذرة من الايمان ، ولولا رجاء الخلق فى سعة رحمة الله تعالى لهلكوا بذلك .

(ج) يقول أبو سليمان الدارانى : ربما جاءتنى الآية خمس ليال ، فلولا أنى أترك الفكر فيها ما جزتها أبدا ، وربما جاءت الآية من القرآن فيطير معها العقل ، فسبحان الذى يرده بعد ذلك .

ولعل ذلك التدبر العميق ، راجع الى طريقتهم فى الاستماع للقرآن الكريم ، فهم يقولون فى نصائحهم : أول إلقاء السمع أن نسمع القرآن كأن النبى صلى الله عليه وسلم يقرؤه عليك ، ثم ترقى عن ذلك ، فكأنك تسمعه من جبريل عليه السلام فى قراءته على النبى صلى الله عليه وسلم لقوله الله عز وجل (وانه لتنزيل رب العالمين * نزل به الروح الأمين * على قلبك لتكون

---

[1] الآية ٦٥ من سورة النساء .

من المنذرين ...) [١] ثم ترقى عن ذلك فكأنك تسمعه من الحق جل جلاله . وذلك لقوله تعالى (وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين) [٢] ويقولون مخرج الفهم فى استماعك من الله تعالى عند حضور قلبك ، وغيبتك عن اشتغال الدنيا وعن نفسك بقوة المشاهدة ، وصفاء الذكر ، وجمع الهمم ، وحسن الأدب ، وطهارة السر ، وصدق التحقيق .

وهم كذلك يقولون من وافق القرآن ، ولم يتبع سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهو مخالف للقرآن ، غير متبع له ، ولذلك يطالبون أنفسهم باقتفاء أثره صلى الله عليه وسلم فيما بلغهم من آدابه وأخلاقه وأفعاله وأحواله ، فيعظمون ما عظم ، ويصغرون ما صغر ، ويقللون ما قلل ، ويكثرون ما كثر ، ويكرهون ما يكره ، ويختارون ما اختار ، ويتركون ما ترك ، ويصبرون على ما صبر ، ويعادون من عادى ، ويوالون من والى ، ويفضلون من فضل ، ويرغبون فيما رغب ، ويحذرون ما حذر ، ذلك لانه صلى الله عليه وسلم قال : (أدبنى ربى فأحسن تأديبى) ، وقال : (بعثت بمكارم الأخلاق) وهم يقولون ان التصوف أخلاق فمن زاد عليك فى الخلق ، فقد زاد عليك فى التصوف ، وليس بعد الأخلاق النبوية زيادة لمستزيد ، فقد نال مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم من ربه تعالى أعظم شهادة بقوله الكريم : (وانك لعلى خلق عظيم) [٣] .

ربعاً - اتخاذ امام فى السلوك الى الله - ومما يقوله الصوفية فى ذلك : من طلب الطريق بنفسه تاه فى أول قدم ، والقرآن الكريم يؤيدهم فيما أخذوا به ، فان الله تعالى حين وصف عباد

---

[١] الآيات من ١٩٢ الى ١٩٤ من سورة الشعراء .
[٢] الآية ٨٢ من سورة الاسراء .
[٣] الآية ٤ من سورة القلم .

الرحمن ، حكى ما سألوه حين قالوا (واجعلنا للمتقين أماما) [١] ، وكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يرجعون لبعضهم البعض فى أمر الدين ، فقد قال مسروق . وهو من التابعين . (لقد جالست أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فوجدتهم كالاخاذ (الغدير) ، فالاخاذ يروى الرجل ، والاخاذ يروى الرجلين ، والاخاذ يروى العشرة ، والاخاذ يروى المائة ، والاخاذ لو نزل به أهل الأرض لأصدرهم) .

وقد ثبت أن وابصة الصحابى رضى الله عنه أخذ عن حذيفة بن اليمانى ، الصحابى رضى الله عنه آداب القلوب وتتلمذ التابعون على الصحابة ، كما أخذ " الحسن البصرى "عن " حذيفة بن اليمان " ، والقرآن الكريم ضرب أروع مثل فى هذا الشأن ، حين حكى ما كان من أمر سيدنا موسى عليه السلام وهو من المرسلين أولى العزم ، حين قال للخضر عليه السلام (هل اتبعك على أن تعلمنى مما علمت رشدا) [٢] . وما شوقه الى الأخذ منه الا الله وحده ، الذى أخبره بخبر الخضر ، ودله على مكان الالتقاء به ، وقال فى وصفه (فوجدا عبدا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما) [٣] .

وما زهد سيدنا موسى عليه السلام من طلب المزيد من علم الباطن الذى وهبه الله للخضر عليه السلام .

وقد قالوا فى وصف الامام الصالح للتربية الصوفية : هو ذلك الذى يربيه الحق من صغره ، فتراه فى الطفولة معتزلا عن الصبيان كأنه فى الصبا شيخ ، ينبو عن الرذائل ، ويفزع من النقائص ، ثم لا تزال شجرة همته تعلو حتى يرى ثمرها متهدلا على أغصان

---

[١] الآية ٧٤ من سورة الفرقان .
[٢] الآية ٦٦ من سورة الكهف .
[٣] الآية ٦٥ من سورة الكهف .

الشباب ، فهو حريص على العلم ، منكمش على العمل ، ساع فى طلب الفضائل ، خائف من النقائص ، فلو تصورت التوفيق والالهام الربانى ، كيف يأخذ بيده ان عثر ، ويمنعه من الخطأ ان هم ، ويستخدمه فى الفضائل ، ويستر عمله حتى لا يراه منه ، فلو تصورت النبوة تكتسب ، لد خلت فى كسبه .

ويعلل امامنا على بن أبى طالب الضرورة فى وجود هذا الصنف من الائمة بقوله : لا تخلو الأرض من قائم لله بحجة ، اما ظاهرا مشهورا ، أو خائفا مغمورا ، لئلا تبطل حجج الله وبيناته ، وكم هم ، وأين أولئك ، والله انهم الأقلون عددا ، والاعظمون عند الله قدرا .

ثم يزيد شارحا لأحوالهم فيقول : هجم بهم العلم على حقيقة البصيرة ، فباشروا روح اليقين ، واستلانوا ما استوعره المترفون ، وانسوا بما استوحش منه الغافلون ، عاشوا بأبدان أرواحها معلقة بالملأ الأعلا ، أولئك خلفاء الله فى أرضه ، والدعاة لدينه .

ومن ذلك ترون أن الشيخ المربى ، ينبغى أن يتوافر فيه ، علم صحيح ، وذوق صريح ، وهمة عالية ، وحالة مرضية ، وبصيرة نافذة ، وقد قالوا ، ان العلامات الدالة عليه : الشفقة على خلق الله ، والتوضع ، وحسن الخلق ، ومجابة الدعوى ، وعدم الانكباب على جمع الدنيا ، وعدم المبالاة باقبال الناس او أدبارهم عنه ، كما قالوا : ليس من لازمه الكرمات أو الاخبار بالغيب ، ولا شبهة فى أن معاشرة من توافرت فيه هذه الخصال تنفع الاخذ عنه ، وحقا يقوله الصوفية :

ومن عاشر النفس الزكية لم يزل يزيد بها حسنا على القرب والبعد

هذا واذا أخذ المريد على الشيخ من هؤلاء الشيوخ المربين ، لزمته طاعته باعتباره امامه وطبيبه ، الذى يريه عيوب نفسه ورعوناتها ، ويعاونه فى علاجها ، واقتلاع آفاتها ، حتى يصفو قلبه

من كدوراته الباطنة ، من مثل : العجب ، والرياء ، والحسد ، والغل ، والمداهنة ، والبخل ، وسوء الخلق .

وقد يلجا بعض الشيوخ فى التربية الى نوع من الشدة العملية التى تسير غور المريد فى المجاهدات ، كأن يأمره الشيخ بخلع ملابسه ولبس اخرى أقل شأنا ، أو بانفاق مبالغ كبيرة فى الصدقات ، لا تسمح بها نفسه عادة ، فإن أطاع وابتغى بطاعته وجه الله ، كان له من ذلك خير وأى خير ، ما دام شيخه من الصادقين الذين ترجى البركة من طاعتهم .

وهم يقولون فى طاعة الشيخ ، انها سبيل التدرج لترك الاختيار مع الله ، فاذا ترك المريد الاختيار مع الله ، ولا يعترض فى نفسه على شىء جرى به المقدور ، وهذا من أعلا آداب سلفنا الصالح ، فقد مات مرة ابن لمولانا الامام الحسين رضى الله عنه ، فلم ير الناس عليه حزنا أو كآبة ، فسألوه فى ذلك ، فقال فى فلسفة عالية : نحن آل بيت ، نسأل الله .. فيعطينا ، فاذا أراد ما نكره فيما يحب .. رضينا ، وسبحان من اصطفاهم على العالمين .

ويبث الشيخ فى مريده التربية الصوفية بثا ظاهرا وخفيا ، بما يؤتيه الله من سلطان الروح ، حتى اذا كان المريد من اهل العناية ، نضج فى التربية ، وصار من أهل القدم ، الذين يؤثرون الله تعالى على سواه ، وصار بدوره اماما لطبقة أخرى ، فتتوارث دعوة الحق ، وهذا من عطاء الله للأمة المحمدية ، فقد قال صلوات الله وسلامه عليه فيما رواه الامام البخارى : (لا تزال طائفة من أمتى قائمة بأمر الله لا يضرهم من خذلهم أو خالفهم حتى يأتى أمر الله وهم ظاهرون على الناس).

ومما تقدم ترون أن الصوفية يربون السالكين الى الله بالعلم ، والعمل ، والتربية الباطنية ، فتطهر ظواهر المريدين بالعبادات ،

وبواطنهم بالمجاهدات ، فتصفوا أرواحهم ، وتتعلق بالملأ الأعلا الذى منه هبطت ، وعند ذ لك لا يطيب لها حال الا مع الله الذى خلقها للآخرة لا للأولى ، وتعبدها فى عالم الذر بالتعريف ، حين خاطب الأرواح بقوله الكريم (الست بربكم) ثم تعبدها مرة أخرى فى عالم الظاهر بالتكليف بالعبادات وفق ما رسمه الشرع الحنيف ، وبالمجاهدات وفق ما ورثه الصحابة عن سيد العالمين صلى الله عليه وسلم ، وورثه لمن جاء من بعدهم من التابعين ، هؤلاء ورثوه لمن بعدهم وهكذا ، لأن الله تعالى الذى شاء أن تكون هذه الأمة المحمدية خير أمة خرجت للناس ، ختم الرسالات السماوية لسيدنا ومولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبقى له معجزة القرآن خالدة ، وقيد للسنة النبوية خدامها ، فلتتم نعمة الله على الأجيال التى لما تدرك زمن النبى صلى الله عليه وسلم ، يبعث الله فى الأجيال المتعاقبة مثلا عليا ، ينشرون نور الدين ، بالمقال والحال ، والنور الذى يمشون به فى الناس ، حتى لا تبطل حجج الله وبيناته ، وأولئك هم خلفاء الله فى أرضه ، والدعاة لدينه كما قال إمامنا على كرم الله وجهه ، وهم لازمون لعلاج الأدواء الروحية لزوم الأطباء لعلاج الأدواء الجسدية ، ويرحم الله أمير الشعراء إذ يقول منبهاً لحاجة الناس إليهم :

أساة جسمك شتى حين تطلبهم   فمن لروحك بالنطس المداوينا

ولا شك أن أخذ الناس الدين عن هؤلاء علماً وعملاً ومذاقاً ، مثمر ثمرته فى المجتمع كله ، الأخذون عليهم وإن لم يبلغوا مبلغ أئمتهم فى النضوج ، لكنهم بلا شك يخطون فى التربية الإسلامية على أيديهم خطوات نافعة لهم ولذويهم ، فالناشئ منا يتأثر كثيراً بمسلك أبيه ، فإذا بلغ الناشىء رشده ، رغب فى تقليد أبيه ، وأخذ الدين الصحيح من أهله ، فتتوارث الدعوة ، وتتوهج الجذوة ولا يخبوا أوارها .

وتؤدى هذه التربية الأمرة بالمعروف والناهية عن المنكر إلى وحدة الصفوف ، لأنها تبث فى المسلمين المحبة ، وتدرأ عن المجتمع شرور الفساد بأنواعه ، من سفك الدماء والأعتداء على الأعراض ، والغيبة ، والنميمة ، والغش ، والأستغلال ، والتحاسد ، والتباغض ، والتنافر ، فيسود الاخاء العالم الإسلامى ، وعندئذ ترى الأخوة قائمة بين المسلمين كقوله تعالى : (انما المؤمنون أخوة)[٧] ، وتقوم الحمية فى المجتمع الاسلامى ، فلا يفرق بين جماعتهم مفرق ، ولا يستذلهم مستعمر ، بل يكونون كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ترى المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى)، وكما قال أيضاً (المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا).

مدى الحاجة إلى التربية الصوفية فى عصرنا الحاضر

والمسلمون اليوم بأشد حاجة للتربية الصوفية ، من أى زمن مضى ، وذلك للأسباب الآتية:

أولاً- انهم نفضوا عار الاستعمار عن بلادهم ، وبقى عليهم أن ينفضوا عن نفوسهم الرذائل ، التى خلفتها فترة الاستعمار ، فقد أخذنا منهم كثيراً من العادات والتقاليد الضارة ، التى لا تتفق وأحكام ديننا ، (وهذه شيمة المغلوبين على أمرهم ، اذ من القواعد الاجتماعية المعروفة ، المغلوب مولع أبدا بالأقتداء بالغالب) وان لم يجاهد الانسان العادات الضارة بتركها ، والاقلاع عنها ، يظل أسيرا لها ، ومقيدا بها ، مع أنها

---

[٧] الآية ١٠ من سورة الحجرات .

مفسدة لدينه ، بدليل نهى الله عنها ، ومن ذلك مثلا شرب الخمر ، والميسر ، والرقص وما الى ذلك .

كما أن المستعمرين وان خرجت جيوشهم من بلاد المسلمين ، الا أن لهم أسلحة أخرى أمضى من أسلحة الجيوش ، لا تزال تعمل فى نشئنا عملها ، كالدعايات الظاهرة والخفية ، والثقافات المعارضة لأحكام الدين ، بل ولفكرة الدين ذاته .

ثانياً – أن زماننا فتحت فيه آفاق علمية جديدة ، ظن بها البعض الذين يعيشون فى تجاربهم من غير المسلمين ، أنها علامة لقدرة الأنسان المطلقة التى يسيطر بها وحده على الكون بما فيه ، ولو تفكر القوم قليلا بغير تعصب لأفكارهم ، لرأوا أنهم لا يدراون عن أنفسهم الموت ، وان اخترعوا أسباب الدمار ، ومالك الموت هو مالك الحياة ، وان ديننا لم يترك التنبيه لمثل ما وصلوا اليه كقوله تعالى (سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق) [٨] وكقوله تعالى (انما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والانعام حتى اذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها انهم قادرون عليها اتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون) [٩] وعلى ذلك لا يجوز للناشئة من أبناء المسلمين أن تفتنهم عن دينهم تلك المخترعات ، التى يصل الانسان اليها بعقله ، الذى ركبه الله فيه ، وبخصائص المواد

---

[٨] الآية ٥٣ من سورة فصلت .

[٩] الآية ٢٤ من سورة يونس .

التى سخرها الله للانسان ، وشتان بين قيمتى المادة والروح :

فيد الجسم بها انشق الحجر

ويد الروح لها انشق القمر

ثالثا- ان غفلة القلوب زادت بازدياد أنواع الملاهى وأدواتها ، حتى اقتحمت على الناس مساكنهم من وراء الجدر ، وفيها ما يوقظ الجانب الحيوانى فى الأنسان ، ويقظته لا تكون الا على حساب الجانب الروحانى ، وخاصة فى الناشئين والناشئات ، ويعجبنى ما يقوله فى هذا الشأن فيلسوف المسلمين الذى عاش عمره يفخر بالإسلام ، وينادى المسلمين باصلاح نفوسهم ، وذات بينهم ، السيد محمد اقبال رحمة الله فيما ترجمة عنه صديقى الفاضل الشيخ الصاوى شعلان) :

هى المدنية الحمقاء ألقت

بهم بين المذاهب حائرينا

لقد صنعت لهم صنم الملاهى

لتحجب عنهم الحرم الأمينا

رابعا- أن العمل بالدين فى بلاد الاسلام ، وقف اليوم أكثره عند الظواهر ، ولم يجاوزها للبواطن ، لأن المسلمين أخلدوا للراحة ، وأخذوا بالرخص والتأويلات ، ولم يأخذوا بالعزائم والمجاهدات كأسلافهم ، لذلك صاروا إلى حالة لا تسر ، فترى المصلين يملأون المساجد ويحجون بيت الله ، فاذا عاملت بعضهم ، رأيتهم ينقضون العهود ، ويتعدون الحدود ، ولو كانوا جادين فى عبادتهم ، ما رأيت منهم ذلك ، كما أن الشباب فترت همتهم فى الدين وانصرفوا الى مالا ينفع ، بل الى ما يضر .

ولقد تعرض لهذه الحالة استاذى العارف بالله الشيخ على عقل طيب الله ثراه فقال فى الهاماته على مجلس الذكر ناصحا :

اذا وعظ الورى الوعاظ يوما فتسخر بالكلام الناشئات
مجلات تثير لنا فسادا غوان فى الصحائف عاريات
يسر بها الشباب ويقتنيها ولا يشرى الوضوء ولا الصلاة
نحج البيت روادا ولكن قلوب بعد ذاك مخربات
وكم ذا ندعى نعطى زكاة وليس لنا مع المولى زكاة
نبيع ونشترى لكن حراما وأبواب الحلال معطلات
وكم يفشوا الربا فينا جهارا وتعجبنا الفتاوى الفاسدات
وكم رمضان نحييه بلهو لياليه باثم ساهرات
محاكمنا قد امتلأت نساء وهل ترضى بكثرتها القضاة
طباع الناس أمست كالأفاعى فالينها ملامس لاذعات

ومضى يعدد آفاتنا طويلا حتى أبكانا مما نحن فيه .
ويتحسر السيد محمد اقبال على تركنا للأخلاق النبوية فيقول :

طوفت فى أرض الأعاجم ثم فى أرض العرب
لم الق فيها (المصطفى) ولكم رأيت (أبا لهب)

وانى أقول لشبابنا ، لقد كان للاسلام بالشباب الناشئ فى طاعة الله ، قوة جسدية وروحية ، فمثلا تولى أسامة بن زيد الصحابى قيادة الجيش وهو دون العشرين ، بأمر من مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان فى الجيش شيوخ الصحابة الأجلاء ، وفيهم أبو بكر و عمر بن الخطاب ، أترى كان أسامة يجود بنفسه فى سبيل اعلاء كلمة الله ، ويبخل بالعبادة ، ثم كان يؤخر العبادة لشيوخته ، وهو لا يدرى متى أجله ؟ .

وأنى انصح شبابنا وفتياتنا أن يحتذوا المثل العليا ، التى ضربها اسلافنا الصالحون والصالحات ، وأن يغتنموا الشباب قبل الهرم ، والصحة قبل السقم ، والغنى قبل الفقر ، والفراغ

قبل الشغل ، والحياة قبل الموت ، كما نصحنا مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الحديث المعروف ، ولتذكر فتياتنا أننا أخذنا كثيراً من ديننا عن أم المؤمنين سيدتنا عائشة رضى الله عنها ، وقد خلفها رسول الله الى الرفيق الأعلا وهى دون العشرين ، وليذكرن كذلك أن السيدة فاطمة الزهراء ماتت فى شبابها ولكنها فى حياتها كانت مثالا رائعا للتقوى وقد وصفها السيد محمد اقبال فى تقواها هذه ، فقال فيما ترجمه عنه أخى الشيخ الصاوى شعلان :

فمها يردد آى ربك بينما ... يدها تجر على الشعير رحاها
لما شكا المحتاج خلف رحابها ... رقت لتلك النفس فى شكواها
جادت لتنقذه برهن خمارها ... ياسحب أين نداك من جدواها
بلت وسادتها لآلئ دمعها ... من طول خشيتها ومن تقواها
جبريل نحو العرش يرفع دمعها ... كالطل يروى فى الجنان رباها

وليذكرون كذلك أن السيدة رابعة العدوية سجلت للنساء فى محبة الله فخرا باقيا على الزمان فى مثل قولها :

أحبك حبين حب الهوى ... وحبا لأنك أهل لذاك
فاما الذى هو حب الهوى ... فحب شغلت به عن سواك
وأما الذى أنت أهل له ... فكشفك للحجب حتى أراك
فلا الحمد فى ذا وذاك لى ... ولكن لك الحمد فى ذا وذاك

وقولها :

كلهم عابدوك من خوف نار ... ويرون النجاة حظا جزيلا
أو بأن يسكنوا الجنان ويحظوا ... بقصور ويشربوا السلسبيلا
ليس لى فى الجنان والنار حظ ... أنا لا أبتغى بحبى بديلا

كذلك انصح المتصوفة من الشباب أن يبذلوا المجهود بين يدى المعبود ، وأن يذكروا الحكمة الصوفية القائلة :من عرف ما يطلب هان عليه ما يبذل :كما انصحهم أن يحرصوا على أورادهم ،

ويلتزموا جماعتهم ، ويطيعوا مشايخهم ويوالوا زيارتهم ، ويجلوهم ، ويستمعوا إلى ارشادهم ، فان كلمة واحدة من كلماتهم النيرة ، أو لحظة من لحظاتهم المباركة ، قد تصعد بالمريد فى معارج الكمال ، وقد كنت ادخل على شيخى العارف بالله سيدى عبد السلام الحلوانى ، رفع الله قدره فى الأولياء ، فأخرج من مجلسه بحال غير التى دخلت بها ، ولولا تربيتة ما عرفت شيئا مما تسمعون .

وانى ناقل لكم بعض ما قاله العارف بالله الامام الحارث المحاسبى فى كتابه الرعاية لحقوق الله عند قوله تعالى : (نسوا الله فأنساهم أنفسهم) [١٠] أى أنساهم النظر إليها ، وأول البلية تعطيل القلوب من فكر الآخرة وذكرها ، وعن ذلك يكون السهو ، ثم النسيان ، ثم الغفلة ، ثم التضييع لأمر الله عزوجل ، ثم مواريث السوء من الرين والقسوة ، اللذين يحجبان عن الآخرة ونعوذ بالله من هذا .

ويعلل اقبال عدم ظهور التجلى فى الأمة ، بالغفلة التى عمت المسلمين ، ولو كان فيهم أهل الشوق لوقع التجلى لهم فيقول :

تجلى النور فوق الطور باق   فهل بقى الكليم بطور سينا

وقد يقول البعض ، وأين أئمة الصوفية ، الذين نأخذ عنهم التربية التى وصفت ، فأقول : ان هذه الأمة ، لا تخلو من خيار يؤتم بهم فى التربية ، فان لم نجد ائمة صوفية ، من أمثال الجنيد ، و الجيلانى ، والرفاعى ، والبدوى ، والدسوقى ، عليهم رضوان الله ، فاننا نجد المتشبهين بهم من المتصوفة ، ولا شك أنهم فى هذا الزمان يعتبرون نسبيا ، قدوة صالحة ، للخروج بنا من ظلمات الغفلة القائلة ، التى نشاهدها فى المجتمع الاسلامى ونسأل الله أن يجنبنا شرها .

---

[١٠] الآية ١٩ من سورة الحشر

وكما نصحت الشباب ، انصح الشيوخ ، بأن يأخذون بيد الشباب فى سبيل الهدى ، ويسهلوا لهم سبيل السعى للآخرة ، وبتدرجوا بهم فى رق يناسب الزمن .

وانصح شيوخ التصوف ، أن يوالوا اتباعهم ، وينهوهم عن التعصب لطريقة دون طريقة ، كما انصح الطرق على اختلافها ، وفروع الطريقه الواحدة ، أن يؤازر بعضها بعضا فى دعوة الحق ، ولا محل للخلاف ، مادام الكل على خير ان شاء الله ، وانى ضامن للمتسامح على الله ، رفعة عند الله .

وانصح أهل السعة فى المال ، أن ينفقوا فى سبيل الله ، ويعاونوا فى اقامة ندوات التصوف ، التى تغرس الهدى فى سبيل النئ .

وانصح غير العرب من المسلمين ، وان يتعلموا اللغة العربية وهى لغة القرآن الكريم والسنة ، لتكون اللغة سبيلا لفهم الدين ، ولاتصال الشعوب الاسلامية بعضها ببعض للتفاهم على مصالحهم .

وانصح أهل الفن من القراء ، وأهل الصوت الجميل من المنشدين أن يعاونوا فى هذه الندوات ، بجهد يبغون به وجه الله ، وتضحيتهم تخلف عليهم من الله ، الذى لا تضيع عنده الحسنات .

وأجرؤ على العلماء فى رحابهم هذا ، فأنصح الذين لم يتصوفوا ، أن يتصوفوا ، ليزينوا القلوب بنور المعرفة ، كما زينوا العقول بنور العلم ، فيرى المجتمع كثرة وقوة فى ائمة الروح ، ويرد الشباب موارد التربية الصوفية الحقة ، بالعلم والعمل ، فالعلم يبدد ظلمات الجهل من العقل ، والعمل يبدد آفات القسوة من القلب ، (ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور) [١١] .

ويعجبنى فى هذه المناسبة ما يقوله فيلسوف الاسلام السيد محمد اقبال رحمة الله : ان الاسلام عند الصوفية ، يأخذ طابعا

---

[١١] الآية ٤٠ من سورة النور .

من الجمال ، والكمال ، والانسانية العالية ، والاخوة العالمية ، لا نجده فى اسلام الفقهاء أو المتكلمين .

أيها الأخوة الاعزاء : اضمنوا لى العمل بما نصحت ، أضمن لكم عهدا جديدا فى الإسلام ، تعود به الينا به عزتنا ، التى يتغنى بها ذلك الفليسوف الكبير بقوله :

الصين لنا والهند لنا — والعرب لنا والكل لنا
أضحى الاسلام لنا دينا — وجميع الكون لنا وطنا
توحيد الله لنا نور — اعددنا الروح له سكنا
بنيت فى الأرض معابدها — والبيت الأول كعبتنا
هو أول بيت نحفظه — بحياة الروح ويحفظنا
واذان المسلم كان له — فى الغرب صدى من همتنا
ان اسم ((محمد)) الهادى — روح الآمال لنهضتنا

حقق الله الآمال ، وردنا الى همة أسلافنا ، ليتحقق لنا ما وعدنا به سبحانه فى قوله الكريم (وعد الله الدين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدوننى لا يشركون بى شيئاً ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون واقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الرسول لعلكم ترحمون) [١٢] .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

٢٩ من شعبان ١٣٨٣

١٤ يناير ١٩٦٤

حسن كامل الملطاوى

وكيل وزارة الخزانة

[١٢] الآيتان ٥٥ و ٥٦ من سورة النور

الأزهر مجمع البحوث الاسلامية

مكتب الأمين العام

السيد الأستاذ الكبير حسن الملطاوى

وكيل وزارة الخزانة

السلام عليكم ورحمة الله ،

وبعـد

يسر الأمانة العامة لمجمع البحوث الاسلامية – باسم مشيخة الأزهر أن تقدم لسيادتكم خالص شكرها وعميق تقديرها للدور الكبير الذى تفضلهم بالاسهام به على منبر القاعة فى عرض شيق وأسلوب قيم .

ولقد كان لتجاوب السادة المستمعين مع سيادتكم خير تعبير عن تقدير مجهودكم . واذ نكرر شكرنا وتقديرنا نسأل الله سبحانه وتعالى أن يجزيك خيرا عن الاسلام والعروبة
والسلام عليكم ورحمة الله .

٣٠ من شعبان ١٣٨٣

١٥ من يناير ١٩٦٤

الأمين العام

لجمع البحوث الاسلامية

(دكتور محمود حب الله)